إدارةُ الأزماتِ العسكريةِ في الدولةِ النوريةِ
مداهمةُ البُقَيعةِ نموذجاً
(558ه / 1163م)

دكتور/ محمد فوزي مصري رحيل

مدرس التاريخ الإسلامي – كلية التربية-جامعة مطروح

M_raheel.edu@mau.edu.eg

-الملخصُ العربيُّ

تهدف دراسة مداهمة البقيعة لإلقاء أضواء كاشفة على الأزمات العسكرية التي تعرض لها الملك العادل نور الدين محمود وكيفية إدارته لها، وقد اتخذت من مداهمة البقيعة (558هـ / 1163م) نموذجا؛ كونها أخطر الأزمات العسكرية التي تعرض لها، وفي الوقت نفسه أدارها باحتراف وخبرة؛ مما أدى لسرعة مواجهة تبعات الهزيمة وفتح مدينة حارم (559هـ / 1164م).

تعرضت الدراسة لمفهوم الأزمة العسكرية، والآراء المختلفة لأساتذة فن الحرب لمواجهتها، ثم عرضت بشكل موجز لأهم الهزائم التي تعرض لها نور الدين قبل البقيعة، ولم تغفل أوضاع المعسكرين الإسلامي والصليبي، وقد خصص المحور الأول لتفاصيل المداهمة من حيث الموقع والوقائع وأسباب هزيمة نور الدين. في حين خصص المحور الثاني لدراسة كيفية إدارة نور الدين لتلك الأزمة، مع عقد مقارنة بين إدارته لأزمة البقيعة وإدارته للأزمات السابقة.

الكلمات المفتاحية: نور الدين – عموري – مانويل كومنين - البقيعة – طرابلس – الدولة البيزنطية – قليقيا.

The English Summary

The Military crisis management during Nuri state

The raid on Al-Baqi`ah as a model 558AH / 1162AD

By: Dr. Mohamed Fawzy Masry Raheel

The Bqai'a raid research aims to shed light on the military crises that Nur al-Din confronted and how he managed them, taking the Bqai'a raid (558 AH / 1163 AD) as a model; because it was the most military crisis that he confronted

at the same time, he managed it professionally and expertly. The successful management led to the speedy facing of the consequences of the defeat and the conquest of the city of Harem (559 AH / 1164 AD).

The study defined the term “military crisis”, explained the different opinions of the art of war experts to confront, presented briefly the defeats that Nur al-Din as subjected to before al-Baqi’a, and clarified the conditions of the Islamic and Crusader camps. The first section is devoted to the details of the raid: the location, the circumstances, and the reasons for Nur al-Din's defeat in it. The second section explained how Nour al-Din managed the al-Baqi’a crisis.

Key words: Nur ad-din Mahmoud, King Amalric, Crusades, al-Buqaia, Tripoli, Antioch, Byzantine, Cilicia,

كان ظهور الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي (541- 569هـ / 1146-1174م)[1] باعتباره شخصية قيادية على مسرح الصراع الإسلامي الصليبي علامة فارقة في ذلك اللقاء الملحمي بين الشرق الإسلامي المتحضر والغرب المسيحي الراغب في استلاب ثمار هذا التحضر بزعم دوافع واهية[2]، طالما تناولتها الدراسات التي اهتمت بموضوع الحروب الصليبية على كثرتها. وتكمن قيمة نور الدين الحقيقية في جهوده الدؤوبة وانتصاراته العديدة في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية، تلك الجهود التي كللت بالفوز بمصر بعد صراع مرير على ممتلكات الخلافة الفاطمية[3]؛ الأمر الذي أدى إلى وضع الصليبيين بين المطرقة الشامية والسندان المصري، ومن ثَمَّ شاع ورسخ في المدونات الإسلامية التفوق العسكري والانتصارات المتتالية لنور الدين، دون الالتفات لهزائم عديدة كادت أحيانًا تودي بحياته، وتعرض مشروع الجهاد الإسلامي للوئد في مرحلة فارقة من أخطر مراحله.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في سعيها لبيان طريقة إدارة نور الدين للأزمات العسكرية التي نتجت عن بعض هزائمه أمام الصليبيين، مع التركيز على واحدة من أهم تلك الهزائم وهي مداهمة معسكره في البقيعة عام (558هـ / 1163م).

وقد قسمت الدراسة إلى: مقدمة شملت: جدوى الدراسة، ومشكلاتها، والصعوبات التي واجهت الباحث، والمنهج المتبع في البحث. وألقى التمهيد الضوء على مفهوم الأزمة العسكرية، والمنهج الأمثل للتعامل معها بحسب خبراء فن الحرب المسلمين، وأشهر الهزائم التي تعرض لها نور الدين قبل البقيعة، ثم عرض أوضاع المعسكرَين الإسلامي والصليبي عشية المداهمة. وتضمن المحور الأول تفاصيل مداهمة البقيعة: مكانها، وطبوغرافية الأرض التي دارت عليها؛ لما لها من أهمية بالغة في النتائج التي أفضت إليها، وأعقبها تفاصيل هزيمة البقيعة وأسبابها. أما المحور الثاني فقد درس طريقة نور الدين محمود في إدارة الأزمة، ومدى مطابقتها لفن إدارة الأزمات العسكرية، وختم البحث بأهم النتائج.

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة التي تعرضت لموضوع هذه الدراسة؛ فقد ذكر كُتَّاب سيرة نور الدين الأوائل ودارسوها من المعاصرين خبر تلك المداهمة دون تفحص كافٍ، في ظل موسوعية هذه الأعمال[4]، ومن الباحثين من أراد أن يحفظ لنور الدين كرامته العسكرية -من وجهة نظره- فكتب مالم

---

(١) الدارس لتاريخ نور الدين محمود يواجه عدة إشكاليات؛ انظرها عند: محمد مؤنس عوض: "إشكالية دراسة نور الدين محمود (1146-1174م)"، مجلة المؤرخ المصري، العدد 60، يناير 2022م، ص 117-136.

(٢) حول دوافع الحروب الصليبية انظر على سبيل المثال لا الحصر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، دار الأنجلو المصرية، القاهرة، 2010م، ص 27- 39؛ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة علم المعرفة عدد 149، الكويت، 1990، ص 47- 88؛ محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية 1095 – 1291م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م، ص 17-23.

(٣) حول السباق النوري الصليبي على مصر انظر: ابن الاثير (علي بن أبي الكرم الشيباني، المتوفى 630هـ / 1232م): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963م ، ص 119 - 140؛ انظر أيضًا: الكامل في التاريخ، ج9، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص 460- 498؛ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، المتوفى 697هـ /1297م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1963م، ص 137 - 160 ؛ ابن قاضي شهبة (أبو الفضل محمد بن تقي الدين، المتوفى 874هـ / 1496م): الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت – دار الكتاب الجديد، 1971م، ص 164- 178؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، ص 11- 168.

انظر أيضًا: حجازي عبد المنعم سليمان: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس عهد عموري الأول، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م، ص 179-232؛ عبير الختاتنة: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول كما أرخ لها وليم الصوري مقارنة بالمصادر الأخرى، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، 2002م، ص 162-191.

(٤) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 539؛ محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل كومنين، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ص 284، خاشع المعاضيدي وآخران: تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، وزارة التعليم العالي العراقية، بغداد 1986م، ص 122؛ محمد مؤنس عوض: السياسة الخارجية للدولة النورية، عين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة، 1989م، ص 180-181.

Gibb, H., "The Career of Nur-ad-in Mahmoud", In Setton, K. (ed.): A History of Crusades, Vol I, (London, The University of Wisconsin Press, 1969), p. 524.

يحدث، وذكر أن نور الدين قاتَلَ الصليبيين لكنه فر من الميدان[1]، خلافًا للحقيقة كما سيتضح من ثنايا الدراسة، بل منهم من طواها تمامًا، وأسقطها من معالجته للعلاقة بين نور الدين والصليبيين[2]، بحُكم أنها كبوة سرعان ما نهض منها نور الدين؛ ومن هنا رأى الباحث أن هذه المداهمة تستحق دراسة تفصيلية، قائمة بذاتها لبيان أسبابها، ووقائعها، وما تركته من آثار في مجرايات الصراع الإسلامي الصليبي.

وتكمن مشكلة الدراسة في ندرة ما ورد عن موضوعها في المصادر العربية، أو المصادر الصليبية؛ الأمر الذي تطلب البحث في عدد كبير من المصادر العربية والأوربية من أجل استجلاء الحقيقة التاريخية وإلقاء الضوء الكافي على هذه المداهمة التي مثلت أزمة عسكرية حقيقية. وفيما يتعلق بمنهج الدراسة؛ فقد استخدم الباحث منهج البحث التاريخي بأدواته المختلفة والمتنوعة من: تحليل، واستقراء، واستنباط، ومقارنة، حسب ما يقتضيه كل موضع في هذه الدراسة.

تمهيد

كلمة "أزمة" كلمة قديمة وجدت في مختلف الثقافات، لكن لفت نظر الباحث التعبير الصيني "Wet-ji"؛ فالمقطع الأول منه "Wet" يترجم بالخطر، أما المقطع الثاني "Ji" فيرمز للفرص المستغلة للتصدي للخطر، وتحويله من نقمة إلى نعمة[3]، وذلك لا يكون إلا بحسن إدارة تلك الأزمة. وفي اللغة العربية يُعرِّف الفيروزبادي[4] الأزمة بأنها الشدة والضيق. وجمعها "أزمات"[5]، كما ذكر ابن منظور [6] أنَّ المأزم موضع الحرب، وهو من القوة والشدة، ومأزم القتال إذا اشتد، وتقرن كلمة أزمة بكل أشكال الشدة أو المشاكل الشديدة؛ فيقال: أزمة اقتصادية، وأزمة سياسية[7]، وأزمة عسكرية.

أما الأزمة اصطلاحًا؛ فقد اجتهد كثير من الخبراء في تعريفها، كل في مجال تخصصه، ومنهم من عرَّف الأزمة بأنها حدث غير متوقع لم يقدره متخذ القرار، نتجت عنه خسائر في الأرواح والأموال في ظل قلة الإمكانات وضيق الوقت[8]، أما الأزمة العسكرية فتقع نتيجة خطر داخلي؛ مثل: محاولة استخدام القوة لتغيير الحاكم، أو خطر خارجي بسبب حشد إحدى الدول لقواتها على الحدود على سبيل التهديد بالحرب أو النية الصادقة لخوض الحرب بالفعل. وقد تحدُث الأزمة العسكرية في أثناء العمليات العسكرية أو المعارك، على سبيل المثال حين يقوم أحد الطرفين على غير توقع من الآخر باجتياح مواقعه واختراق صفوفه؛ الأمر الذي يؤدي إلى ارتباك الخصم بسبب فقدان الاتزان الفجائي[9]، وهنا تظهر مهارة القائد إن تمكن من استعادة التوازن السريع، واتخاذ القرار الصائب الذي يقلل الخسائر، ويحوِّل الهزيمة أو الانكسار إلى نصر مبين، إذا تمكن من إدارة الأزمة على نحو أمثل؛ ذلك أن إدارة الأزمة تعني سرعة معالجتها بأسلوب منضبط بناء على خبرة سابقة تمكن من التنبؤ بكل النتائج المحتملة لهذه الأزمة؛ وبالتالي تجنب أسوأها، وتحويلها إلى مغنم بعد أن كانت مغرم[10].

---

(١) محمد سهيل طقوش: تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، 2011م، ص 379.

(٢) هانز ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس الغرب، 1990م، ص 217.

(٣) إدريس لكريني: إدارة الأزمات الدولية في عالم متغير، المركز العلمي للدراسات السياسية، عمان، 2009م، 12.

(٤) مجد الدين محمد بن يعقوب، المتوفى 817هـ / 1414م: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م، ص 175.

(٥) المعجم الوسيط، القاهرة – مجمع اللغة العربية، القاهرة، 2004، ص 16.

(٦) جمال الدين محمد بن مكرم، المتوفى 711هـ / 1311م: لسان العرب، ج14، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، الرياض، د.ت، ص 282-283.

(٧) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، عالم الكتب، بيروت، 2008م، ص 88.

(٨) نائلة عبد الرحمن أبو عويضة، إدارة الأزمات العسكرية في ضوء القرآن والسنة النبوية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة - جامعة آل البيت، 2011م، ص 9.

(٩) نائلة أبو عويضة: إدارة الأزمات العسكرية، ص 13.

(١٠) أسامة عبد الرحمن: إدارة الأزمات في عهد الخلفاء الراشدين، الرياض، د.ت، ص 9.

وما حدث في البقيعة من مداهمة الصليبيين لمعسكر نور الدين -وعسكره غافلون- ليس بدعًا من الهزائم؛ ذلك أن خبراء فن الحرب عبر العصور شددوا على قادة الجيوش بضرورة حسن اختيار موقع معسكر الجيش، بحيث يقترب من مصادر المياه والكلأ لرعي الدواب، والحطب للوقود، وحسنوا أن يستند المعسكر لجبل أو نهر لحماية ظهره، لكن لو عدم القائد ذلك واضطر لنصب معسكره في مكان مكشوف أوجبوا عليه نشر جنود سريين في محيط المعسكر للإنذار حال اقتراب العدو؛ مثلما أوجب عمر بن أوس الأنصاري[1] توزيع القادة مع جنودهم في المعسكر بشكل معلوم حتى يمكن استدعاءهم في الوقت المناسب، وأوصى بحفر خندق حول المعسكر، ونشر الحسك أو الزقازيق، وهي أشواك من الحديد تعيق تقدم الخيل والمشاة نحو المعسكر، وهذا التصرف بلا شك يعطى القائد الفرصة الكافية لترتيب الدفاع عن معسكره وتقليل الخسائر، حال وقوع هجوم مباغت، وشدد الأنصاري على نشر الجواسيس في المناطق المحيطة بالمعسكر، وبخاصة الأماكن المتوقع قدوم العدو منها، وجعل هذه الطلائع أو الجواسيس نوبات بعضها يعمل ليلًا، وتستبدل مع طلوع النهار؛ حتى يبقى المكلفون بالعمل في يقظة مستمرة؛ فلا يهاجم المعسكر على غرة، كما نصح بنشر عدد من الجنود الخيالة في الليل يهللون ويكبرون حتى يبقى المعسكر في حالة يقظة، مع نشر جنود متنكرين في جنبات المعسكر لتحسس المتسللين من جواسيس الأعداء الذين ربما يتمكنون من التسرب في جنح الظلام.

ومن خبراء فن الحرب -وبخاصة العباسي[2]- مَن حَسَّن للمَلك عدم قيادة الجيش بنفسه، ولكن يوكل مَن يقوم مقامه، وبرر ذلك بأن الملك هو رأس الدولة وفي حال انتصاره ربما يتصرف بتهور، وفي حال الهزيمة تفقد كثير من الأرواح والأموال، ويفسد العمران.

وبقدر ما اهتم خبراء فن الحرب بتراتيب نصب المعسكرات، اهتموا أيضًا بتراتيب الهزيمة، أو ما يسمى في عصرنا "إدارة الأزمة العسكرية"؛ فقد أوصى العباسي[3] بالثبات والصبر، ثم جمع ما بقي من الجيش والتراجع به إلى مكان مأمون، وإعادة ترتيبه بحيث يجعل في مواجهة العدو الجنود الأكثر صبرًا وشجاعة، ويحتمي بأقرب الأماكن الحصينة، وهناك يرتب أولوياته إن أمكنه العودة للقتال لتعويض ما فقد أو الانسحاب الآمن إلى بلده.

هزائمُ نورِ الدينِ قبلَ البقيعةِ:

لم تكن مداهمة البقيعة الهزيمة الأولى التي تعرض لها نور الدين من قبل الصليبيين، وعليه يجب قبل الخوض في تفاصيلها إلقاء الضوء على أبرز هذه الهزائم؛ ليتثنى للباحث عقد المقارنة بين تلك الهزائم وما حدث في البقيعة، وقد اخترنا ثلاثة نماذج لتلك الهزائم نلقي عليها الضوء باختصار.

---

(١) الأنصاري (عمر بن إبراهيم بن الأوسي، كان على قيد الحياة في الربع الأول من القرن التاسع الهجري): تفريج الكروب في تدبير الحروب، تحقيق جورج سكنالون، الجامعة الامريكية بالقاهرة، 1961م، ص 59-61.

(٢) (الحسن بن عبد الله، كان حيا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي): آثار الأول في ترتيب الدول، حقق نصوصه وخرج أحاديثه عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1989م، ص 341.

(٣) نفسه، ص 358.

أولى تلك الهزائم ما وقع عام (543هـ / 1148م) حين هاجم نور الدين بعض المعاقل الصليبية في منطقة أفامية[1] التابعة لإمارة أنطاكية، فاستولى على مجموعة من القلاع والحصون، وأسر عددًا كبيرًا من جند الصليبيين؛ فأسرع أمير انطاكية ريموند بواتيه Raymond of Poitiers (531- 544هـ /1136-1149م)[2] بجمع ما تيسر له من بني جلدته، وهاجم نور الدين بشكل مفاجيء أدى لخسارة كميات كبيرة من المؤن والعتاد، لكن الخسائر البشرية كانت محدودة، فعاد نور الدين إلى حلب لتعويض خسائره وإعادة ترتيب جيشه[3].

وقد أغرت هزيمة نور الدين الصليبيين بتتبعه، فجمعوا قوة للهجوم على حلب بقيادة ريموند أمير أنطاكية، فخرج إليهم نور الدين بقواته، وساندتها قوة عسكرية أرسلها إليه حاكم دمشق معين الدين أنر (530- 544هـ / 1138 - 1149م)، واشتبك معهم عند إنب في (صفر 544هـ/ يونيو 1149م)، وكان القتال شديدًا أسفر عن إبادة القوة الصليبية، وقتل معظمها، وفي مقدمتهم ريموند، وأسر مَن تبقى منهم[4]، ولم يمض نور الدين أبعد من ذلك؛ لأن الاستيلاء على أنطاكية سوف يستغرق وقتًا طويلًا، ويحتاج كثيرًا من أدوات الحصار، كما أنه توجَّه لتصفية ما تبقى من معاقل إمارة الرها[5].

ثاني هزيمة لنور الدين محمود ما وقع عام (546هـ/ 1151م)؛ حين قرر تصفية ما تبقى من حصون ومعاقل إمارة الرها الصليبية مستغلًّا فرصة فشل الحملة الصليبية الثانية[6]، وبلا شك كان هذا الاتجاه عملًا صائبًا ليضمن عدم معاودة جوسلين- كونت الرها- لمهاجمة المسلمين لاسترداد مدينة الرها وإحياء الإمارة من جديد. كل ما نعرفه عن هذه المعركة نشوب قتال عنيف بين قوات نور الدين، وبين

(١) أفامية: ذكر ياقوت الحموي أنها تكتب أفامية وربما تحذف الألف فترسم فامية، ووصفها بأنها مدينة حصينة من مدن الساحل الشامي تعد من توابع حمص وأجوارها، وأضاف أبو الفدا بأن أفامية بها بحيرة يغذيها نهر العاصي وبأنها من المدن القديمة، وأفامية في عصرنا مدينة أثرية تقع على مسافة 55 كم شمال غرب مدينة حماة، في حوض نهر العاصي الأوسط، ويوجد بالقرب منها حصن يسمى قلعة المضيق. عنها انظر: ياقوت الحموي (أبي عبد الله، المتوفى 626هـ / 1229م): معجم البلدان، ج1، دار صادر، بيروت، 1977، ص 227؛ أبوالفدا (إسماعيل بن علي، المتوفى 732هـ / 1331م): تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840م، ص 263؛ عبد الرازق زقزوق و محمد الزين: أفامية، موقع الموسوعة العربية، http://arab-ency.com.sy/ency/details/962/2 زيارة 12 ديسمبر 2022م.

(٢) حول ريموند بواتيه انظر:

Phillips, J., "A Note on the Origins of Raymond of Poitiers", In: E.H.R., Vol. 106 ,1991, 66-67; Murry, A., "Raymond of Poitiers", In: The Crusades an Encyclopedia, ed. By Alan Murry, (Oxford: ABC, 2006) p. 1010.

(٣) ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة، المتوفى 555هـ / 1160م): ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م، ص 302؛ أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، المتوفى 666هـ / 1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، 1998م، ص 143؛ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج2، صححه وعلق عليه محمد كمال، دار القلم، حلب 1988م، ص 10؛ رنسيمان: الحروب الصليبية، ج2، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، 1993م، ص 524؛ طلب صابر الجنابي: إمارة أنطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية، دار نينوى للنشر، 2013م، ص 172.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 304؛ ابن الاثير: الكامل، ج9، ص 356؛ التاريخ الباهر، ص 91-92؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص324 ؛ أبو شامة: الروضتين، ص144-145؛ الطباخ، إعلام النبلاء، ج2، ص 11.

Mallet A., "The Battle of Inab", J.M.H., Vol 39, No. 1, 2013: 48–60; Gibb, H., "The Career of Nur-A-Din", In: A history of Crusades, ed.by Setton, Vol 1, p. 515; Murry, A., "Inab: The Battle of 1149", In: the Crusades an Encyclopedia, p. 633.

(٥) صابر الجنابي: إمارة أنطاكية، ص 174.

(٦) ذكر ابن الاثير أبرز ما تبقى من إمارة الرها في ذلك الحين حصون: تل باشر وعزاز وعين تاب، وأضاف ابن العبري إليها الروندان، وقورس، وبرج الرصاص ومرعش ودلوك، ونهر الجوز، ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص 101؛ ابن العبري (غرغريوس بن أبي الفرج، المتوفى 685هـ / 1286م): تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1890م، ص 361.

الصليبيين بقيادة جوسلين، وأسفرت المعركة عن انتصار الصليبيين، واستيلائهم على كميات كبير من الغنائم وعدد من الأسرى المسلمين [1].

وقد جاء رد فعل نور الدين محمود في صورة استعمال الحيلة بدلًا من الدخول في صدام جديد. ومجمل الحيلة أنه استدعى عددًا من التركمان، ووعدهم بجوائز عظيمة إن هُم قتلوا جوسلين أو أسروه، وهنا نشط التركمان في الأمر، ونشروا جواسيسهم بالقرب من مناطق تحرك جوسلين. وبالرغم من خطورة الموقف إلا أن رغبته في اللهو والعبث جعلته يخرج للصيد غير مبال بما يمكن أن يتعرض له من أخطار؛ فأسره التركمان، وأخذه نور الدين منهم وألقاه في السجن حتى مات في محبسه عام (554هـ / 1159 م)، وعَدَّ هذا الأمر إنجازًا كبيرًا؛ بسبب مهارة جوسلين في مكائد الحروب ونقضه للعهود والهدن بشكل مستمر، كما ترتب على هذا الأسر استيلاء نور الدين على ما تبقى من البلاد التابعة لإمارة الرها ليتأكد تصفيتها للأبد[2].

كما سَجَّل المؤرخ الصليبي وليم الصوري[3] خبر هزيمة أخرى تعرَّض لها نور الدين عند بزاعة[4] في (13 جماد الأولى عام 550هـ / 14 يوليو عام 1155م) على أيدي القوات الصليبية؛ ذلك أنه كان مريضًا في العام السابق، فلما تعافى اتجه لحصار إحدى القلاع في منطقة السواد قرب نهر الأردن، وحين علم الملك بلدوين الثالث Baldwin III (538 – 557هـ / 1143-1162م)[5] بذلك أسرع بجمع جيش، عسكر به عند بحيرة طبرية، فعمل نور الدين بنصيحة قائده البارز أسد الدين شيركوه (المتوفي 546هـ / 1169م)، وفك الحصار، وتوجه للصدام مع ملك الصليبيين عله يظفر به، وحين علم الملك الصليبي بلدوين الثالث بتقدم جيش نور الدين أسرع بتنظيم صفوف جيشه، ووقع صدام تبادَلَ الطرفان فيه الكر والفر حتى شعر نور الدين بضعف في جيشه؛ فانسحب من ميدان المعركة.

والجدير بالذكر أن خبر هذه الهزيمة لم يرد في المصادر الإسلامية، ربما لأنها كانت هزيمة محدودة الأثر، ودليل ذلك أن نور الدين لم يلبث حتى هاجم حصن حارم عام (551هـ / 1156م) الذي كان تابعًا لبوهمند أمير أنطاكية؛ ففرض عليه الحصار، ولم يتركه حتى اتفق المدافعون الصليبيون مع نور الدين على الهدنة مقابل مناصفة خراج الأرض في المنطقة المحيطة بالحصن [6].

---

(١) ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص 101؛ الكامل، ج9، ص 369؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 360 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص 123؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص 136؛ رنسيمان: الحروب الصليبية، ج2، ص 527؛ علية الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، 331.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص328 ؛ ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص 102؛ الكامل، ج9، ص 369؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 361؛ ابن اصل: مفرج الكروب، ج1، ص 123؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص137؛ رنسيمان: الحروب الصليبية، ج2، ص527-528؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج 1 ، ص 508؛ علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، ص 332.

(٣) الحروب الصليبية، ج3، ص 426.

(٤) **بزاعة:** كانت تتبع حلب إداريا أيام نور الدين محمود، وحدد ياقوت أنها تقع في وادي يسمى بطنان- حاليا وادي نهر الذهب- بين حلب ومنبج، في منتصف المسافة بينهما، وتتميز بكثرة واردها المائية، كانت أسواقها المزدهرة، نسب إليها عدد من الأدباء منهم أبي فراس البزاعي وأبو خليفة البزاعي، عنها انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 409؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 59.

(٥) حول بلدوين الثالث انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص 229- 453؛

Baldwin, M, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I", In Setton, K. (ed.): A History of Crusades, Vol I, (London, The University of Wisconsin Press, 1969) pp. 528- 548; Mayer, H. E., " Studies in the History of Queen Melisende", D.O.P., Vol. 26 ,1972, 95–182.

(٦) ابن الاثير: الكامل، ج9، ص 406؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1 ، ص 127-128؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص 149؛ علي السيد علي: العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة، 1996، ص 44 ؛ فاطمة حسب النبي: "مدينة حارم ودورها في الصراع الإسلامي الصليبي خلال عصر الدولتين النورية والصلاحية"، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، العدد 39، 2019، ص 1956.

أوضاعُ الجانبِ الإسلاميِّ قبيلَ مداهمةِ البقيعةِ عام (558هـ / 1163م):

وقعت مداهمةُ البقيعة عام (558هـ / 1163م). والمتأمل للمعسكر الإسلامي في هذه السنة يخرج بالعديد من الاستنتاجات بالغة الأهمية ربما تفسر ما حدث، فهذا العام يعد العام الثامن عشر من سني حُكم نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي؛ أي أن نور الدين لم يكن القائد قليل التجربة غير الملم بتفاصيل الصراع الإسلامي الصليبي، لكنه منذ البداية كان يمتلك رؤية، وصاحب مشروع اتفق مع المشروع الجهادي لوالده عماد الدين زنكي (توفي 541هـ / 1146م)[1]، لكن اختلف في تفاصيل التطبيق وطريقته؛ حيث تمكن من تحقيق العديد من الانتصارات؛ منها: المشاركة في التصدي للحملة الصليبية الثانية، والاستيلاء على ما تبقى من إمارة الرها الصليبية، ومحوها من الخريطة[2]، وأيضًا تكوين دولة قوية حق للمؤرخين أن يصفوها بالدولة النورية، وبخاصة بعد ضم دمشق عام (549هـ/1154م)[3]، حتى ألفينا هذه الدولة قبيل مداهمة البقيعة (558هـ/ 1163م) تمتد من الموصل والرها ونهر عفرين شمالًا حتى حوران ومنطقة شرق نهر الأردن جنوبًا، مكوِّنًا دولة فتية مركزها مدينة دمشق[4]، كما تحكمت في حواضر الشام الداخلية الكبرى: حمص وحلب وحماة، وبذلك حدث توازن واضح بين المسلمين الذين ملكوا الظهير الشامي في مقابل الصليبيين الذين ملكوا كامل الساحل باستيلائهم على عسقلان عام (548ه/ 1153م)[5]، وبالرغم من اتساع المناطق التي خضعت للصليبيين مقارنة بما في ملك المسلمين، إلا أن نور الدين تفوق عليهم بميزة القيادة الموحدة للجانب الإسلامي، في حين تعددت رؤوس الصليبيين كما سوف نعرض بعد قليل[6].

أوضاعُ الجانبِ الصليبيِّ عام (558هـ/ 1163م):

جلس عموري الأول Amaury I (557- 570هـ / 1162 – 1174)[7] على عرش بيت المقدس بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث في ريعان شبابه دون أن يعقب، وكان عموري طموحًا ساعيًا للتوسع الصليبي،

---

(١) عن عماد الدين زنكي انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر، 4- 83 ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص358- 359؛ عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، دار بن كثير، دمشق، 2009م.

(٢) حول إسقاط إمارة الرها الصليبية و توابعها انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص 235- 264؛ ابن الاثير الكامل في التاريخ، ج9، ص 331، 342 ؛ ميخائيل السرياني (المتوفى 596هـ / 1199م): تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة مارجرجويوس صليبا شمعون، دمشق، 1996م، ص 233-280؛ علية الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، 301-336.

Gibb, H , "Zangi and the Fall of Edessa", In Setton, K. (ed.): A History of Crusades, Vol I, (London, The University of Wisconsin Press, 1969) pp. 528- 548, pp. 449-463.

(٣) حول ضم دمشق للدولة النورية انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9 ، ص 398؛ ابن العديم (كمال الدين أبي القاسم عمر، المتوفى 660هـ / 1262م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج2، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، 1954م، ص 305؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص 235؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 362؛ محمد محمد فرحات: تاريخ الحروب الصليبية، دار الوفاء، الإسكندرية، 2014م، ص 163.

٤السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963، ص 598-599؛ أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة للنشر، دمشق، 1986م، ص 183.

٥حول استيلاء الصليبيين على عسقلان انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص305- 372 ؛ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص 391؛ ميخائيل السرياني، تاريخ مار ميخائيل، ج3، ص 289؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 362؛ المقريزي (أحمد بن علي ، المتوفى 845 / 1441م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1996، ص 209؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص 545- 548.

٦سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 523-526.

٧ حول عموري الأول انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية ، ج4، ص 15- 161؛ حجازي عبد المنعم سليمان: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس؛ تغريد الختاتنة: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول، 2002م .

Lilie, R. J., Byzantium and the Crusader States, 1096–1204, Oxford 1993, p. 187- 216; Baldwin, M, "The Latin States under Baldwin III and Amaleic I, 1143-1174, In A History of Crusades, , pp.548 -561 ; Gerish, D., Amalric of Jerusalem, In: , The Crusades an Encyclopedia, ed. By Alan Murry, Oxfod, 2006, p. 58-59.

لكنه وجد الظهير الشامي في قبضة ملك قوي مشهود له بالكفاءة العسكرية والحنكة السياسية، فلم يجد الملك الصليبي متنفسًا سوى التوسع جنوبًا على حساب الفاطميين، فقام بحملة على مصر عام (558 هـ/ 1163م) تحت زعم عدم دفع الفاطميين للجزية التي تعهدوا بدفعها لسلفه بلدوين[1]. ومن الجدير بالذكر أن العلاقة بين الملك عموري والإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين Manuel I Komnenos (538 – 576هـ 1143- 1180م)كانت على ما يرام، في ظل علاقة النسب والمصلحة[2].

أما إمارة طرابلس فقد كانت تحت قيادة ريموند الثالثRaymond III of Trapoli (547 – 583هـ / 1152-1187م) الذي كان ابن خالة الملك الصليبي عموري[3]، وفي توقيت مداهمة البقيعة كان غاضبًا أشد الغضب من رفض الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين الزواج من أخته ميلزند Melisende، وبالتالي أطلق جماعة من القراصنة للإغارة على الثغور البيزنطية انتقامًا من الإهانة التي تعرض لها [4].

أخيرًا إمارة أنطاكية، في ذلك الوقت كانت في مأمن من هجوم نور الدين محمود، وسبب ذلك خضوع الإمارة من الناحية القانونية للإمبراطور البيزنطي منذ عام (490هـ /1097م) حين حلف بوهمند الأول Bohemond I of Antioch (491 – 505هـ / 1098- 1111م) يمين الولاء للإمبراطور الكسيوس كومنين Alexius I Comnenus (474- 512هـ / 1081- 1118م)[5]، وتأكدت هذه التبعية خلال حملة الامبراطور مانويل كومنين الأخيرة على بلاد الشام عام (553ه / 1158م)، بجانب المعاهدة التي عقدها نور الدين مع الامبراطور مانويل في ختام هذه الحملة، أما أمير أنطاكية بوهمند الثالث Bohemond III of Antioch (539- 598هـ / 1144-1201م) فقد كان ما يزال صغيرًا تحت الوصاية، وقد ارتفع شأن الإمارة بزواج الامبراطور مانويل كومنين من أخته الصغرى ماريا Maria of Antioch (540- 578ه / 1145- 1182م)، وبالتالي صارت أنطاكية بحكم الوضع القانوني والمصاهرة متمتعة بالحماية البيزنطية [6].

(١) حول حملة عموري الأولى على مصر عام (558هـ / 1163م) وقضية دفع فدية من الفاطميين للصليبيين، انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 25؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص 262.

Baldwin, M, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I", p 550.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص 443- 450؛ محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية، ص 266- 270.

See also: Garland , L., Byzantine Empresses Woman and Power in Byzantium Ad 527-1204, London, 1999, pp. 199-209; Morris, R.: Maria of Antioch, In : The Crusades an Encyclopedia, p 798- 799.

(٣) أنجب الملك الصليبي بلدوين الثاني أربع إناث: ميلزند Melisende ورثت عرش بيت المقدس، وتزوجت من فولك أنجو، هودرينا Hodierna تزوجت من ريموند بواتيه كونت طرابلس، وتزوجت أليس Alice من بوهمند أمير أنطاكية، أما إيفيتا Iveta فقد سلكت مسلك الراهبات، انظر : Mayer, H. E., "Studies in the History of Queen Melisende," p. 98.

(٤) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية، ص 265-272.

(٥) أنا كومنينا: ألكسياد، ترجمة حسن حبشي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2004، ص 407؛ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1985م، ص 21.

(٦) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، ص 443- 450؛ محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية، ص 266- 270.

See also: Garland , L., Byzantine Empresses Woman, pp. 199-209; Morris, R.: "Maria of Antioch", p 798- 799.

وخلال تلك الفترة كان الامبراطور مانويل قد فرض سلطانه الفعلي على قليقية[1] الأرمينية بعد أن اجتاح مملكة أرمينيا الصغرى وعين القائد البارز ذا الأصل المجري قسطنطين كولمان Constantin Coloman قائداً للحماية البيزنطية فيها عام (557هـ / 1162م)[2].

المحور الأول : مداهمة البقيعة

مقدماتُ مداهمة البقيعةِ:

قام عموري الأول ملك بيت المقدس بحملة على مصر عام (588هـ/ 1163م) تحت دعوى إجبار الفاطميين على دفع الجزية التي وعدوا بها أخاه الراحل بلدوين الثالث، لكنهم لم يفعلوا[3]، هنا وجدها نور الدين فرصة للضغط على طرابلس، لاستنزاف أكبر قدر من قوة الصليبيين في تلك الإمارة، وإجبار عموري على التراجع عن مصر حتى يتدبر أمر الاستيلاء عليها في ظل الضعف البالغ للخلافة الفاطمية، فتحرك نور الدين محمود لغزو طرابلس وعسكر عند البقيعة حيث وقعت المداهمة[4].

ومن الجدير بالذكر أن كنج E. J. King [5] في كتابه "الفرسان الاسبتارية" قد وقع في خطأ بيّن بشأن ظروف تواجد عموري أثناء المعركة في مصر، إذ ذكر أن ملك بيت المقدس ذهب إليها لطرد شيركوه، في حين أن شيركوه لم يخرج إلى مصر إلا بعد هزيمة البقيعة، أيضًا أدرج ستيفنسن W. B. Stevenson [6] في كتابه "الصليبيون في الشرق"، مداهمة البقيعة ضمن أحداث (1164م) في توقيت حملة شيركوه الأولى على مصر، وهذا غير صحيح أيضاً، ويبدو أن سبب هذا الخطأ العلاقة الوثيقة بين رغبة نور الدين في الثأر لما ألم به في البقيعة (558ه /1163م) وانتصار المسلمين في حارم (559هـ / 1164م)[7].

وهنا سؤالٌ يطرح نفسه، ألا وهو لماذا قرر نور الدين محمود أن يهاجم طرابلس ولا يهاجم أنطاكية، ولا مملكة بيت المقدس ذاتها في غيبة ملكها؟ ولعل ما قدمنا منذ قليل يجيب عن هذا السؤال، ففي ذلك الوقت لم يكن الهجوم على أنطاكية مناسبًا لما ذكرناه من حماية الإمبراطور البيزنطي لها.

أما مملكة بيت المقدس ذاتها فلا شك أن عموري قبل خروجه لغزو مصر عام (558هـ / 1163م)[8] اتخذ من التدابير والاستعدادات لحماية المملكة في غيبته ما يكفل أمن حدودها حتى يرجع، ناهيك عن بعد المسافة بين شمال الشام والقدس والتقدم جنوبًا يحتاج كثيرًا من المؤن والعتاد.

---

(١) قليقية: تقع بلاد في جنوب شرق أسيا الصغرى، يحدها من جهة الشرق جبال الأمانوس، ومن ناحيتي الشمال والغرب جبال طوروس، ومن الجهة الجنوبية البحر المتوسط، من طرسوس حتى الاسكندرونة، من مدنها الشهيرة : طرسوس والمصيصة ومرعش وعينتاب. وفي فترة الدراسة كانت مسكونة بعناصر أرمينية تحت السيادة البيزنطية. لمزيد من التفاصيل انظر: فتحي سالم اللهيبي: مملكة أرمينيا الصغرى، دراسة في العلاقات السياسية مع القوى المجاورة للفترة (463-776هـ / 1071-1374م)، دار الغيداء، عمان، 2018، ص 30-33.

(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج3، ص558 ؛ محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية، ص 283؛ أندريه نصار: العلاقات بين مملكة قليقية الأرمينية والزنكيين والايوبيين، كتبنا للنشر، بيروت، 2018م، ص 41.

(٣) في عام 1160م هدد بلدوين الثالث بغزو مصر ولم يمنعه من تنفيذ تهديده إلا تعهد الخليفة الفاطمي بدفع مائة وستين ألف دينارًا ذهبًا، لكن لم يحدث أن دفع الفاطميون مثل هذا المبلغ أبدًا، ومن هنا شن عموري حملة عسكرية على مصر عام 1163م لكن القوات الفاطمية بتدبير الوزير ضرغام حصرت الجيش الصليبي بفتح سدود القنوات والترع فاستحال الأمر على عمري وعاد للقدس خاوي الوفاض، انظر : رنسيمان: الحروب الصليبية، ج2، 593.

(٤) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، 160، 161؛ ابن خلدون (عبد الرحمن، المتوفى 808 هـ / 1406م): تاريخ بن خلدون، ج 5، ضبط المتن ووضع حواشيه خليل شحاتة ، دار الفكر ، بيروت، 2000م ، ص288.

(٥) The Knights Hospitallers in the Holy Land, London,1931, p 89.

(٦) The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, p. 188.

(٧) عبد العزيز عبد الدايم: إمارة طرابلس، ص 90.

(٨) ناقش أسباب هذه الحملة ووقائعها ومآلها بشكل مفصل -المرحوم بإذن الله- الدكتور حجازي عبد المنعم، عنها انظر:

في حين كان الهجوم على طرابلس مثاليًّا، لأسباب عدة: أولاً أنه يحقق الغرض الأساس من هجوم نور الدين على أملاك الصليبيين [1]، ثانيا: لم يتوقع نور الدين أن تحصل طرابلس على عون القوات البيزنطية في أنطاكية أو قليقية؛ لما ارتكبه ريموند الثالث من أعمال انتقامية في الثغور البيزنطية[2]، ثالثا: قرب طرابلس[3] من حمص التي خرج منها في جموع ضخمة، والمسافة بين طرابلس وحمص غير بعيدة، وبالتالي يمكن لهذه الجموع الضخمة أن تصل إليها بأقل جهد، مما يجعلها شديدة التهديد للإمارة، فيعود عموري من مصر سريعًا، وتؤتي مظاهرته الحربية ثمارها، رابعًا وهذا ترجيح -ربما يكون صائبًا- أن نور الدين لم يخرج للقتال وإنما للتظاهر حربيًّا، فلم يرد في المصادر اصطحابه لأدوات الحصار، وبالتالي خرج في جموع ضخمة كان العامة غير المقاتلين فيها كثيرين، بدليل أن جل من قتل في البقيعة كان من العامة الذين لا يجيدون القتال[4].

أرضُ المعركةِ:

وقعت مداهمة البقيعة عام (558هـ / 1163م)[5]، تحت سفح حصن الأكراد الخاضع لحماية الفرسان الاسبتارية[6] لذلك عرفت ببقيعة الحصن [7]، وسمى ابن الأزرق المكان عند رأس الماء[8]، إشارة إلى قرب المعسكر من النهر الكبير، والباحث عن موقع البقيعة- في عصرنا- يجدها في آخر منطقة عكّار الشماليّة قرب الحدود اللبنانيّة -السوريّة- على ارتفاع 300 م من مستوى سطح البحر، يفصلها عن بيروت وطرابلس مسافة 150 كم، والبقيعة سهل خصب يجود به زراعات متنوعة كالقمح والكروم وأنواع الخضر، يمر به النهر الكبير [9] الذي يجري غربًا ليصب في البحر المتوسط في خليج عرقة، ومن النهر الكبير تتفرع عدة قنوات لري أراضي البقيعة[10]، وفي بدايات القرن العشرين زار الرحالة الفرنسي يان

وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 25-27 ؛ حجازي عبد المنعم سليمان: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس عهد عموري الأول، ص 129- 136.

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج2، ص 590.

(٢) محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية، ص 284.

(٣) المسافة بين حمص وطرابلس 97 كم.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص 400.

(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 116؛ الكامل في التاريخ، ج 9، ص 462؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج 2، ص 312؛ أبو شامة: الروضتين، ج 1، ص397؛ ابن واصل: مفرج الكروب ج 1، ص 135؛ أبو الفدا: المختصر، ج3، ص 41؛ ابن خلدون: العبر، ج 5، ص 288؛ محمد مؤنس عوض، السياسية الخارجية للدولة النورية، ص 180.

(٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 116؛ الكامل في التاريخ، ج 9، ص462؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية ص 160-161؛ ابن واصل: مفرج الكروب ج1، ص135؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج 2، ص 313؛ أبو شامة: الروضتين، ج 1، ص397؛ ابن فضل الله العمري: (شهاب الدين أبو العباس أحمد، المتوفى 749 هـ / 1348م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد كمال عز الدين، مج. 3، ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز، دار روائع الاثير، الرياض، 2008م، ص42؛ أبو الفدا: المختصر، ج3، ص 41؛ محمد مؤنس عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية، ص180.

Stevenson, The Crusaders in the East, 197

حصن الأكراد: هو حصن كان تحت سيطرة الفرسان الاسبتارية، يقع في جبال النصيرية وسط سورية الحالية، تقع القلعة فوق مرتفع من الأرض يبلغ 640م أو 2100 قدم، وكانت القلعة من أشد تحصينات الصليبيين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، بقي تحت السيادة الصليبية من 1109م حتى 1271م، حول تفاصيل عمارة الحصن انظر: مولر وفينز : القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، دار الفكر، دمشق، 1984م، ص 76- 79.

(٧) جوزف عبد الله: منتخبات التواريخ والآثار مما خلفه الرحلة الغربيون حول عكار والجوار، القبيبات، 2010، ص 289.

(٨) ابن الأزرق الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي، المتوفى ترجيحا 572هـ / 1176م): تاريخ آمد وميافارقين (تاريخ بن الأزرق) ، الموسوعة الشامية، ج 11، تحقيق د. سهيل ذكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، 286.

(٩) النهر الكبير: ينبع هذا النهر من شمال سوريا متجها نحو الجنوب حتى يصل لسهل البقيعة وهناك يتجه غربا نحو البحر المتوسط ليتكون مصبه عند المنطقة المعروفة بشرم عرقا. انظر: رينيه دوسو: المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور القديمة والوسطى، ترجمة عصام الشحادات، بيروت، 2013، ص 128.

(١٠) طوني مفرح: موسعة قرى ومدن لبنان، ج 4، دار نوبلس، بيروت، د.ت، ص 211؛ أسامة سيد علي: الساحل الشامي في القرن الثاني عشر/ السادس الهجري ودوره في الصراع الإسلامي الصليبي، رسالة ما جستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1992م، ص 37.

بستيرون[1] حصن الأكراد ووصف سهل البقيعة بالوادي العريض كثير الخضرة، وقد بني حصن الأكراد على تل يشرف على البقيعة ليتحكم في المدخل الشرقي للسهل الممتد حتى البحر، كما تتحكم القلعة في طريقين رئيسين: الطريق الأول ، طريق القادم من الشرق المتوجه إلى طرابلس أو طرطوس، والطريق الآخر طريق القادم من حماة ورفينة ليصل إلى الساحل أيضًا، كما يقع سهل البقيعة شمال عدد من التلال الخضراء، ومن ثم شكل هذا الحصن خطراً عظيماً على المسلمين [2] في ظل تحكمه في واحد من أهم الممرات الواصلة بين الساحل الشامي و ممر الوادي الكبير [3].

وقبل أن نسترسل في تفاصيل المداهمة يجب أن نحاول الإجابة على سؤال بالغ الأهمية، هل كان نور الدين صائباً في اختيار موضع معسكره في البقيعة؟ بمراجعة الشروط التي ذكرها أساتذة فن الحرب ووردت في صدر الدراسة[4]، وجد أن الشروط كلها كانت متوفرة في البقيعة؛ إذ تقع في الطريق نحو طرابلس -غرض الغزوة- وتوافر بها كل الشروط المذكورة، أي أن موضع المعسكر كان مثالياً، لكن قيادة نور الدين للجيش بنفسه كان مخاطرة كبيرة إذ عرض نفسه ومشروع المقاومة الإسلامية ككل للخطر في حالة فقدانه بالموت أو الأسر، وبالرغم من علم نور الدين بذلك إلا أنه قاد الجيش إرهابًا الأعداء، ولضرب المثل لجنوده بالتفاني من أجل نجاح مشروع الجهاد الإسلامي لطرد الصليبيين واسترداد الأرض السليبة.

حجمُ القواتِ المشاركةِ:

سكتت المصادر العربية والصليبية عن تقدير حجم قوات نور الدين وإن أشار إليهم سبط ابن الجوزي[5]بالخلق العظيم، لكن من خلال التعرف على بنية جيش نور الدين يمكن أن نصل لعدد تقريبي، فمن المعروف أن نور الدين سار على نهج السلاجقة في تمويل الجيوش اعتمادًا على الإقطاع العسكري[6] الذي أمن للسلاجقة ثم للزنكيين عددًا يطمئن إليه السلطان أول الملك حال الدخول في مواجهة عسكرية في أي وقت، وكان جيش نور الدين يتألف من الحرس الخاص، التابع له مباشرة وتكون من ألفي فارس، وحال الخروج للقتال كان يستدعي قوات مدينة أو أكثر من المدن التي صارت تابعة له بعد توسع دولته بضم أملاك أخيه الظاهر غازي المتوفى سنة (544هـ / 1149م)، بجانب التوسعات الناتجة عن ضم دمشق، ففي معركة إنب (544هـ / 1149م) شاركت قوات حلب ودمشق وكان مجموع الجيش 6000 من الفرسان[7] أي أن المدينتين وفرتا أربعة آلاف فارس، ويري جب Gibb[8] أن أقصى جيش جمعه نور الدين محمود تراوح فيما بين 10000 و 15000 بما فيهم المتطوعين غير النظاميين.

في ضوء ما تقدم وما ثبت من عدم استدعاء قوات المناطق التابعة له حتى هذا الوقت، وكذلك عدم ذكر أسماء القادة الكبار مثل أسد الدين شيركوه بجانب كثرة المتطوعين من العامة[9]، أرجح أن جيش نور

---

(١) رحلة يان بيسترون ذكرياتي السورية، ترجمة نهاد نور الدين، دمشق- دار التكوين، 2009، ص 84.

(٢) جوزف عبد الله: منتخبات التواريخ، 250؛ رينيه دوسو: والمسالك والبدان، 129.

(٣) أحمد رمضان أحمد: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسة، القاهرة، 1979م ، ص 15.

(٤) الشيزري (عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر، المتوفى سنة 589هـ / 1193م): المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق على عبد الله الموسى، مكتبة المنار، عمان ، 1987م، ص 604-605؛ الأوسي: تفريج الكروب 59.

(٥) مرآة الزمان، ج22، ص 37.

(٦) حول الاقطاع العسكري انظر: إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م.

(٧) السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج1، ص 602.

(٨)

The Career of Nur-ad-in Mahmoud, In: Setton, K, (ed.), A History of Crusades, Vol I, London, 1969, P 519-520.

(٩) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص 400.

الدين في البقيعة لم يزد على خمسة آلاف فرد، منهم ألفي فارس -الحرس الخاص- والباقي من المشاة والمتطوعة.

أما عن حجم الجيش الصليبي في البقيعة: فقد صمتت المصادر الصليبية عن ذكره، لكن يبدو أن جموع الصليبيين كانت أقل من جيش نور الدين محمود بشكل واضح، بدليل حرصهم الشديد على التكتم حتى داهموا معسكر نور الدين[1]، كما أن أعداد المقاتلين لو كانت كبيرة لأصبحت حركتهم حول حصن الأكراد ملحوظة للعيان.

قادةُ الجانبِ الإسلاميِّ: قاد نور الدين محمود الجيش المسلم بنفسه[2]، ولم يحضر الواقعة أسد الدين شيركوه مقدم جيش نور الدين ولا كبار القادة النوريين[3].

الجانبُ الصليبيُّ: تكون المعسكر الصليبي من خليط من الرهبان الفرسان والفرنج المحليين والحامية البيزنطية المقيمة في قيليقا، والحجاج الأوربيين، فقد ذكر ابن الاثير[4] أن الدوقس الرومي (قسطنطين كولومان) كان على رأس كثير من الفرنج الذين نزلوا حديثا في الساحل الشامي راغبين في قتال المسلمين، لكن وليم الصوري[5] كان أكثر تفصيلا وتوضيحا حيث ذكر أن القيادة العامة للفرنج كانت للفارس الداوي جيلبرت دي لاسي Gilbert de Lacy قائد فرسان المعبد في منطقة طرابلس، ووصفه بأنه مقاتل متمرس، وعاون جيلبرت في انجاز المهمة الحاجان الأوربيين جودفروي المطرقة أخو كونت أنجوليم Geoffrey Martel, the brother of William IV of Angoulême وهيو اللوزينياني Hugh VIII the Old of Lusignan وروبرت مانسل Robert Mansel قائد العسكر الغاليين-الفرنسيين-، والقائد البيزنطي قنسطنطين كولومان.

وأسندت قيادة الجانب الصليبي لقائد الفرسان الداوية بالرغم من أن حصن الاكراد كان من ممتلكات الفرسان الاسبتارية بحسب مصطفى الحناوي[6]؛ وذلك لرغبة الصليبيين في اختيار القائد الأكفاء في ظل قيادة نور الدين بنفسه للجانب الإسلامي[7]، ولا نغفل ثقة الصليبيين الكبيرة في الفرسان الداوية لشجاعتهم وتقدمهم الصفوف في المعارك[8]، لكنه ذكر أيضًا أن الفرسان الاسبتارية كانوا في طريقهم لانتخاب قائد جديد، وبالتالي الأرجح أنهم قبلوا على مضض هذه القيادة، في ظل التنافس التقليدي بين الداوية والاسبتارية،

(1) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117.
(2) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 116؛ الكامل في التاريخ، ص 9، ص 462؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج 2، ص 312؛ أبو شامة: الروضتين، ج 1، ص 397.
(3) أبو الفدا: المختصر، ج3، ص 38.
(4) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ج 9، ص 463.
(5) الحروب الصليبية، ج 4 ، ص 30؛ رنسيمان: الحروب الصليبية ،ج 2، ص 593؛ إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية، ص105.
King, The Knights Hospitallers, p 89; Zoe Oldenbourg, The Crusades, trans by Anne Carter, New York, 1966, p. 363.
وقد وقعت ذوي أولدنبرج في خطأ حين زعمت أن عموري ملك بيت المقدس كان على رأس القوات الصليبية في موقعة البقيعة، لأنه كان في نفس التوقيت يقود غارة على مصر لإجبار ضرغام الوزير الفاطمي على دفع الجزية للمملكة الصليبية، لكنه فشل وعاد للقدس فارغ اليد، انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 25؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ، ج3، ص 26؛ رنسيمان: الحروب الصليبية، ج2، ص 592.
(6) الفرسان الاسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، مكتبة الرشد، الرياض، 2004م، ص 173.
(7) كان للفرسان الداوية هرم إداري صارم، وكان لقائد المنطقة كل سلطات المقدم العام للداوية في حدود منطقته، انظر: محمد فوزي رحيل: الرباط المقدس مدخل لتاريخ الهيئات الدينية العسكرية الصليبية في بلاد الشام في القرنين 12-13م، مركز التاريخ العربي، إسطنبول، 2020م، ص 49.
(8) محمد فوزي رحيل: "القانون الأساسي للفرسان الداوية وأثره في الحرب مع المسلمين"، القاهرة- حصاد مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، 2012م، ص 145-174.

لكنهم ما لبثوا أن اختاروا قائدًا جديدًا للمنطقة في العام نفسه، يدعى جيلبرت الأسيلي Gilbertus d.Assaili[1].

لكن ما سر تجمع هذا الجيش الفسيفسائي بهذه السرعة بمجرد وصول الجيش النوري إلى البقيعة؟ هل اجتمع مصادفة أم أن هذا الاجتماع كان اتفاقا مسبقاً؟ في تقديري أن هذا الهجوم كان متوقعًا من قبل عموري الأول قبل رحيله إلى مصر، فلم يكن عموري بالقائد قليل الخبرة حتى يترك مملكته والساحل قبل أن يضع كل الاحتمالات في ضوء خبرته الكبيرة في الحرب مع المسلمين طوال سني حكم أخيه بلدوين الثالث، ومن هنا نسق أمر تأمين مملكة بيت المقدس كما نسق بين حاكم طرابلس- ابن خالته- والرهبان الفرسان من الداوية والاسبتارية، ومعهم القائد البيزنطي كولمان- ممثل الامبراطور البيزنطي- حتى يتخذوا اللازم حال مهاجمة إمارة طرابلس في غيبته.

المداهمةُ:

سار نور الدين بجيشه حتى وصل البقيعة و عسكر بها، وكان نور الدين في معسكره شديد الاحتراز من الهجوم في الأوقات المتوقع الهجوم فيها وبخاصة في بداية اليوم أو قرب الغروب، لكن لم يظن أن يهاجمه الفرنج في وضح النهار، وبينما جند نور الدين منشغلون في وسط اليوم بشئونهم وفي حالة استرخاء تام فوجئوا باقتراب الصليبيين[2]، الذين تقدموا مستترين بالتلال القريبة من سهل البقيعة، والتي تتميز بكثرة أشجارها وهو ما يعد ساترًا ممتازًا للمتسللين والكمائن، وكان الفرسان الداوية في المقدمة بقيادة جلبرت دي لاسي، فانقضوا فجأة على معسكر نور الدين في وضح النهار، فكانت المفاجأة[3] أو الكبسة على حد تعبير ابن خلدون[4]، وكان للقائد البيزنطي كولومان دورًا كبيرًا في المعركة كما أشار إليه ابن الأثير، ومع حدوث المفاجأة حاول يزك[5] المعسكر النوري التصدي للصليبيين لكنهم لم يستطيعوا بسبب كثرة الصليبيين وهول المفاجأة، فأرسل اليزك لنور الدين بالخبر لكن بعد فوات الأوان، فقد وصل الصليبيون لخيمة نور الدين بسرعة فائقة، ولم يستطع الجنود ركوب الخيل وحمل السلاح على النحو اللائق، في وقت استمات فيه الفرنج في القتال، لجني ثمار فوزهم السريع[6].

ونتيجة لسرعة اجتياح الصليبيين للمعسكر النوري استشهد كثير من المسلمين، وبخاصة العامة– السوقة– والغلمان من خدم المعسكر[7]؛ بسبب عدم درايتهم بالقتال ليدافعوا عن انفسهم، ولم تحدد المصادر أعداد الشهداء، أما الأسرى فقد وصفهم وليم الصوري بالرهط الكبير[8]،ويؤكد ذلك قول الشاعر عبد الله بن أسعد الموصلي في قصيدة طويلة نظمها ليعزي بها عن نور الدين أثر هزيمة البقيعة يقول فيها:

---

(١) Le Roulx, J. D., Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre 1100-1310, (Paris – Ernest Leroux, 1904), p.65 وأيضا: مصطفى الحناوي، الفرسان الاسبتارية، ص 173.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص 463؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 313؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص 397؛ سبط ابن الحوزي: مرآة الزمان، ج21، ص 37؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 41.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية، ص 2، ص 593؛ إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية، ص 105.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج5، ص 288.

(٥) اليزك: مصطلح فارسي الأصل يعني مقدمة الجيش، ويقوم بدور المخابرات العسكرية في عصرنا بحسب يوسف خورشيد. انظر: أدي شير: الألفاظ الفارسية المعربة، دار العرب، القاهرة، 1988، ص 160؛ يوسف حسن خورشيد: تنظيمات الجيش في عصر الأتابكة الزنكية في موصل وحلب، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 2009، ص 211.

(٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ص9، ص463؛ إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية، ص 105.
King, E. J., The Knights Hospitallers , p 89

(٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ج 9، ص463؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص 398؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص 135-136.

(٨) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج 4 ، ص 30.

بني الأصافر ما نلتم بمكركم والمكر في كل إنسان أخو الفشل

وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم غير الأراذل والأتباع والسفل[1]

ولم تسجل المصادر وقوع أي من قادة نور الدين المشاهير في الأسر فيما خلا أخو مجد الدين صاحب حلب، والأمير يونس الذي كان في خدمة الحاجي شمس الدين[2].

أسبابُ هزيمةِ نورِ الدينِ في البقيعةِ:

بتفحص الروايات العربية والأوربية التي أرخت لمداهمة البقيعة يمكننا التعرف على أسباب هذه الهزيمة الكبيرة كالتالي:

- **الزهوُ بالانتصاراتِ المتتاليةِ:** شخص وليم الصوري أسباب هزيمة نور الدين في البقيعة بالزهو الكبير بسبب انتصاراته السابقة؛ مما جعله يقلل من حذره ويستخف بالصليبيين، فتقدم إلى البقيعة غير متخذ للحيطة، فكانت فرصة اهتبلها الصليبيون المتحمسون للقتال بعد الوفاء بنذر الحج، فتعرض لهزيمة كان يمكن أن تقضي على مستقبله العسكري والسياسي[3].
- **موقعُ المعسكرِ:** ساعدت طبوغرافية البقيعة الصليبيين على حسن التخفي والمباغتة، في ظل إقامة نور الدين معسكره تحت حصن الأكراد، والحصن مرتفع مشرف على المعسكر والهبوط بديهي أسرع من الصعود، وهو ما حذر منه الهروي[4] حين نصح بإقامة المعسكر على التلال المنبسطة، لكن يبدو أن هذه الميزة لم تكن متوفرة في ذلك الوقت فاتخذ نور الدين من هيبته درعا بديلاً لكنها لم تغن عنه شيئاً.
- **توقيتُ الهجوم:** هاجم الصليبيون معسكر نور الدين في النهار، مستغلين اعتقاد المسلمين بأن هذا الوقت لا يصلح للهجوم، وأنهم في قمة الأمان، ومن ثم مالوا للاسترخاء فكانت الكارثة[5].
- **الإهمالُ في إجراءاتِ تأمينِ المعسكرِ:** لم يقم المسؤولون عن معسكر نور الدين بتأمينه بشكل مناسب، بدليل وصول الصليبيين لخيمة نور الدين في وقت قصير جدًا [6]، ساعدهم على ذلك حسن التخفي حتى اقتربوا من معسكر نور الدين، فهاجموه بشكل مباغت، لم يمكن الطلائع من التنبيه بالهجوم فكانت النتيجة المذكورة.
- **الدعمُ الأوربيُّ:** صادف موعد تقدم نور الدين للهجوم على طرابلس وجود اثنين من كبار الحجاج الأوربيين: جودفري المطرقة وهيو الرابع اللوزينياني، وبالطبع كان مع كل منهم عدد من المقاتلين بجانب المدنيين، وكان من المعتاد منذ الحملة الصليبية الأولى أن يشارك الحجاج الجدد في قتال المسلمين وفاء بالقسم الصليبي، ومن ثم حين علما بقرب نور الدين قررا على الفور الانضمام إلى الصليبيين في قتاله[7].

(١) أبو شامة: الروضتين، ج 1، ص 320.
(٢) ابن الأزرق الفارقي (الموسوعة الشامية 11)، ص 287.
(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج 4 ، ص 29؛ محمد مؤنس عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية، ص 180.
(٤) علي بن أبي بكر المتوفى 611هـ / 1214م: التذكرة الهروية في الحيل الحربية، دار الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص 17.
(٥) ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص 18.
(٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117.
(٧) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج4، ص 30.

المحور الثاني: إدارةِ نورِ الدينِ لأزمةِ مداهمةِ البقيعةِ:

أولاً : الانسحاب التكتيكي: مع اجتياح الصليبيين المفاجئ لمعسكر قوات نور الدين وصعوبة الصمود لم يجدوا أفضل من الانسحاب السريع أو الانهزام[1]، وعبر عن ذلك ابن قاضي شهبة قائلا :"السعيد الذي ركب فرسه ونجى"[2]، أما نور الدين فقد أخرجه الجنود من ظهر الخيمة بملابس خفيفة وركب فرسًا بغرض الانسحاب السريع، لكنه لم يفك الشبحة (رباط رجل الحصان)، حتى كاد أن يقع في أيدي الفرنج لولا أن أحد الجنود الأكراد قطع السلسلة فنجا نور الدين واستشهد هو[3]، ولم تختلف رواية وليم الصوري[4] عن حالة نور الدين كثيرًا، حيث ذكر أنه خرج حافي القدمين تاركًا متاعه وسلاحه ناجيًا بنفسه بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الوقوع أسيراً، وذكر ابن الأزرق الفارقي[5] أن هناك مجموعة من الفرسان أحاطوا بنور الدين حتى خرج من مكان المعركة وبلغ مأمنه ومنهم شهاب الدين محمد ابن إياس بن أرتق ومعه جماعة من المقاتلين.

ثانيًا: إعادةُ التمركزِ: فر نور الدين محمود في اتجاه حمص لكنه لم يدخلها، وفي تقديري أنه كان مدركًا أنه لو واصل السير نحو حمص لزاد طمع الصليبيين فيه، مما يزيد الخسائر وتنهار معنويات الجنود والأهالي وربما أسقط الصليبيون المدينة أو فرضوا عليها الحصار، ومن هنا عسكر في ظاهرها على بعد فرسخ، ونصب خيامه على بحيرة قدس التي تبعد عن البقيعة أربعة فراسخ[6]، وقد سماها ابن خلدون[7] بحيرة مرس وقدس أصح.

وفي هذه اللحظات الحرجة ظهر بعد نظر نور الدين وقدرته الفائقة في إدارة الأزمة، فقد رفض بعض أتباعه هذا الموقع خوفًا من تتبع الصليبيين لهم لكن نور الدين وبخهم بسبب هذه النصيحة، وأكد لهم أنه لن يهدأ باله إلا بمسح عار الهزيمة بنصر مدوى، وهذا العار من وجهة نظره له شقان شق ديني وشق شخصي، مما أوجب الثأر السريع[8].

ولم يكن اختيار موقع المعسكر الجديد عشوائيًا لكن عن علم بتكتيكات وفنون الحرب لدى الصليبيين، فهذا الموقع يمكنه من جمع فلول جيشه بشكل سريع، مما يعجل بتنفيذ ما خطط له من سرعة محو أثر الهزيمة، بجانب الحفاظ على استقرار الأوضاع الأمنية في حمص لأنه لو دخلها منهزمًا لحدث نوع من الهرج الأمني وربما موجات نزوح بسبب التاريخ الدموي للصليبيين مع المدن التي اجتاحوها منذ الحملة الصليبية الأولى.

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص 463؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص 161؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 313؛ أبو شامة: الروضتين ج1، ص 397؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (القسم التاريخي)، ج3، ص 42.
King, The Knights Hospitallers, p 89

(٢) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص 160-161.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص463؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 313؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص398؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص 135؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج5، ص 288.

(٤) الحروب الصليبية، ج4، ص 30.

(٥) ابن الأزرق الفارقي (الموسعة الشامية 11) 287.

(٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج 2، ص 314؛ سبط ابن الحوزي: مرآة الزمان، ج 21، ص37؛ ابن خلدون: العبر، ج5، ص 288.
الفرسخ: يعادل 4444 متر. انظر: عبد الله فكري: الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1893م، ص 15.

(٧) تاريخ ابن خلدون، ج5، ص 88.

(٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص 463؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 314؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص398.

ثالثًا: دعمُ المعسكرِ: حرصًا من نور الدين على دعم مكانه واستعادة قوته كاملة، أرسل إلى المدن الكبرى التابعة له مثل حلب ودمشق طالبًا الأموال والدواب والسلاح ووزع ذلك سريعا على جنوده الذين نجوا من البقيعة بغير سلاح ولا عتاد[1]، وتبدو عدة ملحوظات ترتبط بعملية تدعيم المعسكر واستعادة التوازن منها:

- رعاية حقوق الشهداء: حين نجا نور الدين محمود من الأسر في واقعة البقيعة قرر على الفور النظر في أمر الشهداء فبدأ بالمقاتل الكردي الذي راح ضحية موقفه البطولي حين ضحى بنفسه من أجل نجاته، فسأل عن ورثته وأحسن إليهم تقديراً لدوره، أما باقي الشهداء فقد حرص على رعاية أبنائهم وذويهم فترك لهم إقطاعات الشهداء رعاية لحقوقهم، ومن لم يكن له أبناء انتقل الإقطاع إلى الأقربين من الورثة[2]، وهذه ظاهرة جديدة لم تكن معروفة من قبل في الإقطاع السلجوقي، كما أنها تعبر عن مرونة نور الدين في معالجة الأمور حسب مقتضى الحال[3].
- حرص نور الدين على جبر خواطر جنوده الذين أثرت فيهم المداهمة سلبا -ماديًّا ونفسيًّا- ومن هنا عاملهم معاملة فاقت التوقع، فقد كان سخيًّا إلى أقصى حد، حين وزع عليهم في يوم واحد مائتي ألف دينار، بجانب تعويضهم عن المفقودات من: دواب وسلاح ومال.
- حرص نور الدين على عدم المساس بعطاء المتصوفة المنقطعين للعبادة، فقد رفض اقتراحًا من أحد مستشاريه بالاستعانة بالأموال الموقوفة على الفقهاء والقراء والمتصوفة لدعم المجهود الحربي[4] وعزل من أشار بذلك من منصبه[5]. وكان نور الدين بعيد النظر في قراره بعدم الانتقاص من حقوق المتصوفة، لأنه لو فعل لأثر سلبًا في جهاز الدعاية الفعال المنتشر في أوساط عامة الناس، وهو ما يحدث حالة من الشك المتبادل بين الراعي والرعية. ولا شك أن أخبار هذا التصرف قد انتشرت سريعًا عن طريق المصاحبين لنور الدين من المتصوفة سواء في البلاد الخاضعة له بشكل مباشر أو في البلاد التابعة لإخوته، ومن هنا لم يتأخر أحد ممن دعاه نور الدين للنصرة عن نجدته، وفي تقدير الباحث أن الضغط الشعبي نتيجة هذه الدعاية كان من أسباب سرعة الاستجابة لدعم نور الدين محمود.

و رواية وليم الصوري[6] في مجملها تؤكد ما جاء في المصادر العربية فيما يتعلق بطلب العون من الأقارب والأصحاب وقل من لم يساعده، حتى اجتمع لديه جيش كبير من المشاة والفرسان، بفضل رغبتهم في الجهاد وكثرة العطاء والصلات.

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117، 118؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص 463؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص161 ؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، ص 141.

(٢) ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص 117؛ الكامل في التاريخ، ج 9، ص 469؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية ص 161؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 313-314؛ أبو شامة: الروضتين ج1، ص 398-399؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص 135؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (القسم التاريخي)، ج3، ص 42؛ أبو الفدا: المختصر، ج3، ص 41.
Stevenson, The Crusaders in the East, p. 197

(٣) سن نور الدين محمود مبدأ توريث الاقطاعات لكن الأمر طبق على نطاق ضيق في عهدي الأيوبيين ثم المماليك. لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزي (أحمد بن علي، المتوفى 845هـ / 1442م): السلوك لمعرفة دول الملوك، ق1، ج1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936م، ص 509؛ إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط ، ص 279-280؛ طلال سعود العصيمي: الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة بجامعة أم القري، 1984م، 46.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117، 118؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص 463؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية ص162 ؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 314؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص 399.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج5، ص 288.

(٦) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 30.

رابعاً: محوُ عارِ الهزيمةِ:

عقب النصر السريع الذي حققه الصليبيون والغنائم الكثيرة التي ظفروا بها توجهوا مباشرة لغزو حمص باعتبارها أقرب البلاد الإسلامية منهم، لكنهم لما علموا بنصب معسكر نور الدين قرب حمص ظنوا أن مددًا كبيرًا جاءه فصار في قوة تجعله لا يواصل الانسحاب بل يعيد التمركز استعدادًا للهجوم عليهم[1]، فأرسل الفرنج لنور الدين طالبين الهدنة فرفض ذلك، فلما يأسوا تركوا حامية كافية في حصن الأكراد وتفرقوا إلى بلادهم[2].

ظن الصليبيون أن نور الدين سوف يوجه ضربته القادمة لحصن الأكراد [3]، لأنه تحرق للانتقام، فواصل الاستعدادات واستغل عودة عموري لغزو مصر عام (559هـ / 1164م)، لمنع سيطرة القائد النوري أسد الدين شيركوه من السيطرة عليها[4]، وما أن استشعر الصليبيون نية نور الدين للقيام بعمل عسكري كبير حتى اجتمعوا من جديد، وكان على رأس الصليبيين عدد كبير من القادة، بعدد الفرق التي شاركت في المعركة: رينو سان فاليري Reynald of Saint Valery حاكم حارم، و بوهمند الثالث أمير أنطاكية، و ريموند الثالث كونت طرابلس، و ثورس **Thoros II** (538 - 564ه / 1144- 1169م) ملك أرمينيا الصغرى، و أخيرًا قسطنطين كولمان قائد الحامية البيزنطية في قليقيا، وجل من شارك من القادة كان مشاركًا في مداهمة البقيعة، فاستدرجهم نور الدين لمنطقة تدعى عم بين حلب وأنطاكية وهناك أحاط بهم وسحقهم تماما، وأسر كبار القادة فيما خلا ثورس الأرمني الذي فر، وأيضًا أسر أعدادًا لا تحصى من الصليبيين ثم توجه إلى حارم فاستولى عليها[5]، وهكذا انتقم نور الدين بنصر حارم لهزيمته في البقيعة.

هكذا أدار نور الدين أزمة مداهمة البقيعة، ومن خلال المقارنة بينها وبين إدارة الأزمات السابقة نلاحظ ما يلي:

- كان لنور الدين سياسة ثابتة قوامها أن المبادأة تكتيك حربي فعمد إلى غزو الإمارات الصليبية، وبالتالي وقعت الهزائم أو الأزمات العسكرية خارج بلاده، وفي المقابل انتقم نور الدين وحول هذه الهزائم لانتصارات بفضل حسن إدارته، فحصل فوائد جمة صبت في مصلحة مشروعه الجهادي الهادف لتحرير أرض المسلمين من المستعمر الصليبي.
- عالج نور الدين هزيمة ريموند بواتيه له عام (543هـ / 1148م) بعمل عسكري كبير عام (544هـ /1149م) أودى بحياة ريموند. وانتقم من جوسلين كونت الرها عام (546هـ / 1151م) بالحيلة، في حين ثأر لهزيمة بلدوين الثالث له عام (550 هـ / 1155م) بالهجوم المحدود على حارم. لكن

---

(١) ابن الاثير: التاريخ الباهر، 117؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص 463؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص 161؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 314؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص 136.

(٢) ابن الاثير: التاريخ الباهر، 118؛ الكامل في التاريخ، ج9، ص 463؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص 163؛ ابن خلدون: العبر، ج5، ص 288؛ رنسيمان: الحروب الصليبية، ج2، ص 593.

(٣) ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص 118

(٤) في نهاية ربيع الأول من عام 589هـ / 1164م وصل شاور الوزير الفاطمي المهزوم من قبل غريمه ضرغام إلى نور الدين محمود طالبًا عونه لاسترداد منصبه وزيرًا لمصر، على أن يكون ثلث خراجها لنور الدين بالإضافة لبعض الاقطاعات لعساكره، مع بقاء شيركوه في مصر نائبا عنه بها، فكانت فرصة لنور الدين للتدخل في الشأن المصري، وما أن نجح المخطط ووصل شاور لمنصبه من جديد حتى تراسل مع الصليبيين الذين شعروا أن مصر تضيع من أيديهم، فهب عموري الأول ملك بيت المقدس على رأس جيشه لإخراج شيركوه وجنوده منها. حول تفاصيل تلك الحملة انظر: ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 465؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص 264- 278؛ وليم الصوري: الحرب الصليبية، ج4، ص 28-29؛ حجازي عبد المنعم سليمان، السياسية الخارجية لمملكة بيت المقدس، ص 137-148.

(٥) لمزيد من التفاصيل حول فتح حارم انظر: ابن الاثير: الكامل، ج9، ص467-468؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص 30-33؛ محمود سعيد عمران: معركة حارم التحالف البيزنطي الصليبي الأرمني ضد نور الدين زنكي، مجلة المؤرخ العربي، ع 8، 1978، ص 89- 99؛ فاطمة أحمد محمود: حارم ودورها في الصراع الإسلامي الصليبي، ص 41-42؛ يوسف حسن خورشيد: تنظيمات الجيش في عصر الأتابكة، ص 74.

رده على هزيمة البقيعة كان عنيفًا يتناسب مع ثقل الهزيمة، وبالتالي أعلن النفير العام في كل مملكته ومحى أثر هزيمة البقيعة بنصر كبير في حارم (559هـ / 1164م).

- أن أشبه واقعة هزم فيها نور الدين بمداهمة البقيعة كسرته عام (543هـ / 1148م) قرب أفامية وكان رده الاستعانة بقوات دمشق وسحق قوات أنطاكية وقتل أميرها ريموند بواتيه عند أنب في صفر من العام التالي (544هـ/1149م)، وكما أدار نور الدين الأمور عقب انتصاره في حارم من الكف عن انطاكية لعدم استثارة الامبراطور البيزنطي فعل نفس الشيء بعد انتصاره في إنب حيث أكتفى بمناصفة البلاد بينه وبين الصليبيين قرب أنطاكية وعاد مظفراً إلى دمشق، بغرض التفرغ لتصفية ما تبقى من إمارة الرها.

نتائجُ الدراسةِ:

بعد هذه الدراسة التفصيلية لفن إدارة الأزمات العسكرية عند نور الدين محمود من خلال مداهمة البقيعة، نخلص إلى عدة نتائج نجملها فيما يلي:

- تعد مداهمة البقيعة ناتجًا من نواتج السباق النوري الصليبي على مصر، بالرغم من أن الحملات النورية لم تكن قد بدأت بعد، لكن في تقدير الباحث أن نور الدين قرر الضغط على طرابلس ليخرج عموري من مصر وليستعد أو ليبحث عن وسيلة أو مبرر يغزو به مصر، حتى جاء إليه شاور - الوزير الفاطمي المطرود- وطلب معونة لاسترداد كرسي الوزارة فكانت الفرصة التي يبحث عنها.
- لم تكن أزمة البقيعة أول الأزمات العسكرية التي تعرض لها نور الدين لكنها كانت الأخطر لأنه أوشك أن يقع في يد الصليبيين.
- أظهرت أزمة البقيعة المهارة العظيمة لنور الدين في إدارة الأزمات العسكرية، من خلال اتباعه حزمة من الإجراءات أفضت في النهاية لنصر مبين على الصليبيين.
- كان نور الدين ملمًّا إلمامًا جيدًا بوصايا أساتذة فن الحرب في إدارة الأزمات بجانب خبرته العظيمة بنفسية الصليبيين وهو ما ساعده على سرعة تحويل هزيمته إلى انتصار في حارم بعد مدة قصيرة.
- بدا من إدارة أزمة البقيعة حرص نور الدين على رعاية أسر الشهداء، وهذا الأمر لا يمكن تجاهله من قبل أي قائد عسكري، لما له من دور كبير في المواجهات العسكرية، حيث يقاتل كل جندي في موقعه غير مشغول بمن يعولهم وهو ما يوفر فرصة أكبر لتحقيق النصر.
- أكدت أزمة البقيعة قيادة نور الدين محمود للجبهة الإسلامية المتحدة في مواجهة الصليبيين، حيث أسرعت كل الأقاليم التي وجه لها الدعوة لمعاونته في تقديم ما يمكنها تقديمه من عون بكل الأشكال، فمنهم من قدم ما طلب منه خوفا من نور الدين، ومنهم من استجب حرصا على بقاء رمز المقاومة صامدًا.
- أكدت الدراسة بما لا يدع مجالا للشك أن دراسة هزائم وانكسارات القادة العسكريين لا تقل أهمية عن دراسة انتصاراتهم.
- فتحت إدارة الأزمات العسكرية الباب لإحداث تطور في الإقطاع الحربي بالسماح بتوريث الإقطاع في حالة استشهاد المخصص له بعد أن كان هذا الأمر محظورًا فيما سبق.
- بدا من وقائع مداهمة البقيعة التنسيق الكامل بين كل القوى المعاندة لنور الدين بدليل سرعة تجمع الحلف الذي واجهه في البقيعة.
- أدرك نور الدين ما اعترى جيشه من قصور معلوماتي، وهو ما عوضه في الصدامات التالية، وبالتالي حقق انتصارات باهرة بدأها بنصر حارم وختمها بالفوز في السباق الصليبي النوري على مصر.
- أكدت توابع البقيعة أن مقتل الصليبيين في استدراجهم لساحة القتال المفتوحة، كما حدث في معركة عم التي افضت لأسر جل القادة الصليبيين والاستيلاء على حارم.

قائمة المختصرات

D.O.P.=Dumbarton Oaks Papers

E.H.R.=English Historical Review

J.M.H. = Journal of Medieval History

خريطة الدولة النورية في أقصى اتساع لها

الخريطة عن سامي المغلوث: أطلس الحروب الصليبية على العالم الإسلامي، مكتبة العبيكان، الرياض، 1429هـ/، ص 95.

حصن الأكراد

صورة حديثة للحصن نقلاً عن موقع ويكيبيديا
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D9%84%D8%B9%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B5%D9%86_(%D8%AD%D9%85%D8%B5)